



النفس الإنسانية بين البناء والهدم رؤية تحليلية في ضوء القرآن والسنة

**د. أحمد حسين جاسم الصفار
أكاديمي متقاعد**

The human soul between construction and demolition
Analytical vision in the light of the Qur'an and Sunnah

Dr. Ahmed Hosein Jasem Al-Saffar

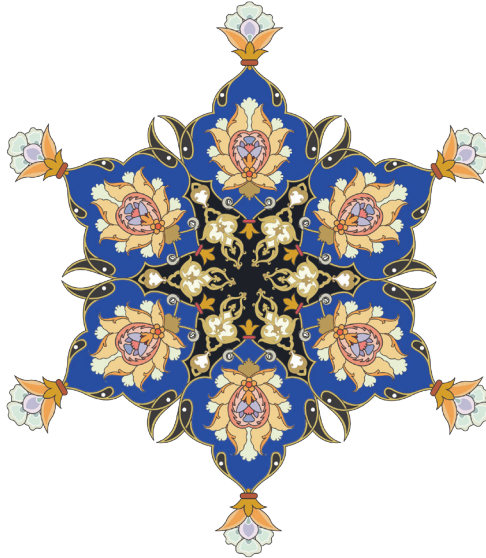
Retired academic

Email: ahalsaffar@hotmail.com

ملخص البحث

يستعرض هذا البحث المسألة العقائدية في دائرة هدف الإيجاد من خلق الإنسان وتدرجه في العوالم إلى الخلق المادي ، ثم ما دور الإنسان في حيز تلك الدائرة، وهو عالم الملك المنحصر من نزول الانسان من رحم أمه الى موته ، ودوره بعلاقته مع ما كان عليه في عالم العقل وما يصطلح عليه بقوسي الصعود والنزول . واستعراض تلك العلاقة عبر دلالة الآيتين: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، و﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾. ودور الإنسان عبر حياته في حركة التأريخ. وانشعاب ال(إنّا) في الآية ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، الى (إنّية) إلهية رسالية (معنوية) ، والى دنيوية مادية ، والكدح في ضوئها ينقسم على كدح أخروي وكدح دنيوي.

الكلمات المفتاحية : النفس الإنسانية،القرآن،السنة.



Abstract

This research deals with a review of the ideological circle of Man creation/existence and his gradual transformation in creation into the materialistic dimension to his role within the mundane realm the worldly dimension from the advent of Man from the womb of his mother (being born) to his last breath (death).

This journey indulges Man's relationship within the intellectual realm firstly which is also described as the arcs of Ascend and Descend as we will further explore this via these two Versus (O man! You are laboring towards your Lord and you will meet Him) and (To Allah we belong and to Him we are returning) and secondly the role of the Man during his life in the movement of history the branching of "we" in the verse (O man! You are laboring towards your Lord and you will meet Him) refer to (His) existence of the divine missionary and the mundane or materialist one and the highlighted perseverance also divides into two sections hereafter and mundane one.

Keywords: the human soul, the Qur'an, the Sunnah.



المقدمة

كلّ بناء يكتنز في كيانه عناصر الضعف ، والهدم ما لم تُنجز عليه عناصر الترميم والصيانة المستمرين معه أبداً، هذا الكلام ينطبق على حياتنا اليومية بكل أبعادها الروحية، والمعنوية، والمادية وغيرها ، ولو قدر لأمهر المهندسين أن يَشِيدَ بناءً فمن المنطق ألا يشيده على أرض لا تتحمّله ، أو يبنيه على سفح واد تمرّ فيه سيول جارفة، ومن غير المعقول ألا ينصح بإدامة البناء من صيانة وترميم . فالمهندس البارِع ينتج بناءً بارِعاً ، والرسام الماهر يرسم بريشته أجمل اللوحات ؛ وإلا ما كان ماهراً والجراح الحاذق ذو الأنامل السحرية ما كان مشهوراً وجراحاً ماهراً إلا ورأينا نتائج عملياته الجراحية على المرضى الميؤوس من علاجهم، والخالق ما كان خالقاً^(١) ولا فاطراً^(٢) ، ولا بديعاً^(٣) ، ولا مبدأً^(٤) ولا منشأً^(٥) ، ولا موجداً^(٦) ؛ إلا بعدما رأينا خلقه وإلاّ كان ادعاء لا يغني، ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [سورة لقمان: آية ١١] ، وتيقنّا أنّه الخالق لكل شيء وفاطره: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٠٢].

- (١) الخلق: هو إيجاد شيء على كَيْفِيَّةٍ مخصوصة وبما أوجبه ارادته واقتضته الحكمة، وقيل هو التقدير، راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفى، ج ٣، ص ١١٥.
- (٢) الفطر: هو إحداث تحوّل يوجب نقض الحالة الأولى، كالتحوّلات العارضة المحدثّة بعد الخلق الأوّل، وهذا المعنى يصدق على التقدير والخلق والإحداث والإبداع، راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفى، ج ٩، ص ١١٢، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذَ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٤].
- (٣) بدع: هو إيجاد الشيء وانشأؤه على خصوصيّة لم يسبقه فيها غيره، راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفى، ج ١، ص ٢٣٠، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: آية ١١٧].
- (٤) الإبداع: هو الإنشاء والإيجاد ابتداء وفي أوّل مرّة، راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفى، ج ١، ص ٢٣٠، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة الروم: آية ١١].
- (٥) الإنشاء: هو إحداث أمر مستمرّ، أو حدوثه في استمراره ومع البقاء، راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفى، ج ١٢، ص ١١٨، قال تعالى: ﴿وَنُشِئْكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْ لَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الواقعة: آية ٦٢].
- (٦) الإيجاد: جعل شيء واجداً ومدرّكاً، فهو مَوْجُودٌ بالنسبة إلى الموجود موجد، وواجد بالنسبة إلى شيء يدرّكه، راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفى، ج ١٣، ص ٣٤.



دائرة الإيجاد

الله سبحانه وتعالى هو الكمال المطلق ((فأوجب أن يكون مجموعله الأول الصادر عن نفس ذاته بذاته، التي هي عين مرتبة ذاته قبل سائر المجعولات، قبلية بالذات بحسب المرتبة العقلية، أفضل ما يبلغه ادراك العقول والاذهان، وأشرف ما وسعه طباع عالم الامكان، وأن تكون أولى من مراتب مجعولاته ومعلولاته التي هي من جملة الموجودات في نظام الوجود، أشرف المراتب وأفضلها وأكملها وأجملها، فإذا وجب أن يكون أولى مراتب نظام الوجود عالم الأنوار العقلية، وأن يكون العقل الأول من بينها بخصوصية جوهر ذاته هو المجعول الاول لا غير، مرتبة عالم العقول النورية المفارقة ولها عرض واسع في الكمال، ومن ثم كان العقل الأول نور نفس خاتم النبوة، لما بينهما من أتم المناسبة والموازاة، وأشد المشابهة والمضاهاة بحسب الدرجة. قال ﷺ في حديث: « أول ما خلق الله العقل »، وفي حديث آخر: أول ما خلق الله نوري. فالعقل الأول نور خاتم الانبياء، والعقل الثاني نور سيد الأوصياء، بل العقل الأول نورهما معا؛ لأنها كنفس واحدة. قال ﷺ: « أنا وعلي من نور واحد » من العقل الاول الى العقل الاخير، وثانيتها: مرتبة عالم النفوس المجردة السماوية، وثالثتها: مرتبة عالم النفوس المنطبعة السماوية على عرض واسع باختلاف درجات الكمال، فالوجود يبتدأ منه عز وجل متنازلاً في المراتب المترتبة، من الشرف الى الخسة، ومن الكمال الى النقص، ومن المستحيل أن يتهدى الى نهاية))^(١)

ويختار الإنسان أي مرتبة يريد حسب ما يريد عمله في الحياة الدنيا؛ ليرجع إليها إن كان جادا في كدحه لأجل تحقيق الصعود الى ما عاهد الله عليه يوم الإشهد وأخذ الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٧٢].

وقد صرح القرآن الكريم عن مراحل خلق الإنسان وإنه كيف خلق؟ ، ومن أي شيء خلق؟ ، فعملية خلق الإنسان قد مرّت بثلاث مراحل كما رسمها القرآن الكريم،

(١) التعليقة على اختيار معرفة الرجال، محمد باقر الحسيني الاسترآبادي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٤٠٤ هـ، ج ١، ص ٢٢٧-٢٣٢.



وهي: ((المرحلة الأولى: التراب المتحوّل: وهي: ١. التراب ^(١)، ٢. الطين ^(٢)، ٣. الطين اللازب ^(٣)، ٤. صلصال من حمأ مسنون ^(٤)، ٥. سلاله من طين ^(٥)، ٦. صلصال كالْفَخَّار ^(٦). إنّ مجموع هذه الحالات الست المختلفة ترجع في حقيقتها إلى شيء واحد، وإنّ المادة الأساسية في كلّ هذه الحالات هي مادة واحدة.

المرحلة الثانية: مرحلة التصوير: جعل القرآن الكريم مرحلة تصوير آدم ﷺ هي المرحلة الثانية من مراحل خلق الإنسان حيث قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١١]، وإنّ مفهوم التصوير هو نفس مفهوم التسوية الذي ورد في آية أخرى حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة الحجر: آية ٢٨-٢٩]

المرحلة الثالثة: مرحلة نفخ الروح: عملية نفخ ^(٧) الروح، أو النفس في البدن ^(٨)،

(١) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران: آية ٥٩].

(٢) ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة السجدة: آية ٧].

(٣) ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [سورة الصافات: آية ١١].

(٤) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [سورة الحجر: آية ٢٦].

(٥) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة المؤمنون: آية ١٢].

(٦) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [سورة الرحمن: آية ١٤].

(٧) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة الحجر: آية ٢٩].

(٨) تعريف الروح والنفس فلسفياً يختلف عن تعريفهما عقائدياً (كلامياً) بل تتنوع التعريفات بحسب المدارس الفكرية المنسوبة عن علمي الكلام، والفلسفة. فللمشائين من الفلاسفة تعريف يغاير ما عند الاشرقيين ويختلف عند الحكمة المتعالية، ولعلماء الكلام تعاريف متفاوتة بحسب مبنى كل طائفة منهم إذ المعتزلة لهم تعريف، وللأشاعرة تعريف، وللإمامية تعريف، وللإسماعيلية تعريف، فضلاً عن اختلاف الآراء في منشأ كل منها. والروح: ماهية بسيطة فوق الإدراك، جزء من الذوات المقدسة العالية. لذلك كل المخلوقات لا تحمل روحاً، وإنها أنفساً متعددة، سواء أكانت نفس شهوانية، أو غذائية، أو عدوانية غضبية، أو إيجابية مطمئنة، وما إلى ذلك، والأنفس أنواع نباتية وحيوانية وهي على مراتب ناطقة، وغيرها كما أشار إليه أمير المؤمنين ﷺ حينما سأله الأعرابي عن النفس فقال ﷺ: «أي الأنفس تسأل؟ فقال: يا مولاي هل النفس أنفس عديدة؟ فقال: نفس نامية نباتية، وحسية حيوانية، وناطقة قدسية، وإلهية كلية ملكوتية. وفي حديث آخر يصف أمير المؤمنين ع هذه النفس الإلهية فيقول: والكلية الإلهية لها خمس قوى: بقاء في فناء، ونعيم في شقاء، وعز في ذل، وغناء في فقر،

وهذه المرحلة انماز الإنسان عن غيره وجعلت له أفضلية على غيره ؛ لأن هذه المرحلة جعلت منه موجوداً مركباً من عدّة أبعاد، فمن جهة هو موجود متعلّق مفكّر يمتلك فكراً وعقلاً يوصله إلى مصاف الملائكة، ومن جهة أخرى جُهِز بمجموعة من الغرائز والмиول النفسية التي إن لم تخضع للسيطرة والموازنة ، والرقابة العقلية فأنها تجمع به لتلقيه في قعر الذلّ والسقوط والانحدار .^(١)

ولعل رسول الله ﷺ يبيّن لنا هذه المسألة بقوله : ((خلق الله الخلق وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء، فأخذ أهل اليمين بيمينه، وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يد الرحمن يمين فقال: يا أصحاب اليمين فاستجابوا له فقالوا: لبيك ربنا، وسعديك. قال: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى قال: يا أصحاب الشمال فاستجابوا له فقالوا لبيك ربنا وسعديك قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾^(٢). فخلط بعضهم ببعض فقال قائل منهم: رب لم خلطت بيننا؟ قال: ﴿وَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾^(٣) ﴿أَنْ تَقُولُوا

وصبر في بلاء، ولها خاصيتان: الرضا والتسليم، وهذه التي مبدؤها من الله وإليه تعود، وقال الله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحٍ﴾ [سورة الحجر: آية ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [سورة الفجر: آية ٢٨]، والعقل وسط الكل. أنظر: شرح الأسماء الحسنى، حاج ملا هادي السبزواري (ت ١٢٨٩ هـ)، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، ج ٢، ص ٤٥؛ البحار: ج ٥٨، ص ٨٥ باب حقيقة النفس.

والنفس تناولها الموت والفناء والتغيير، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [سورة العنكبوت: آية ٥٧]. الروح لا تناولها أي موت أو تغيير أو أي طارئ، لأنها فوق هذه الكينونات والماهيات، ودون الوجود الإلهي الأحدي الصمدي، وإنما هي متعلقة مع الجهة الإلهية ومرتبطة به، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة الحجر: آية ٢٨]. وهل يحمل الإنسان روحاً؟ كلا، فالروح لا تجتمع الا مع الإيمان المحض الحقيقي والعقل السليم الصحيح، وإنما سينالها فيما لو استقام على الصراط المستقيم، لقابليته على حملها. عن الباقر (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [سورة الزمر: آية ٤٢]، قال: «ما من أحد ينال إلا عرجت نفسه إلى السماء وبقيت روحه في بدنه وصار بينها سبب كشعاع الشمس، فإن أذن الله في قبض روح أجابت الروح النفس. وإن أذن الله في رد الروح أجابت النفس الروح..» أنظر: الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج ١٧، ص ٢٧٦.

(١) الفكر الخالد في بيان العقائد، جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)، ج ٢، ص ٣٩.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٧٢.

(٣) سورة المؤمنون: آية ٦٣.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ^(١) ثم ردهم في صلب آدم فأهل الجنة أهلها وأهل النار أهلها. فقال قائل: يا رسول الله فما الأعمال؟ قال: يعمل كل قوم لمنازلهم. فقال عمر بن الخطاب: إذا نجتهد ((^(٢) . وعلق الطباطبائي ^(٣) قائلاً: (يعمل كل قوم لمنازلهم) فيقول: أي إن كل واحد من المنزلين يحتاج إلى أعمال تناسبه في الدنيا فإن كان العامل من أهل الجنة عمل الخير لا محالة، وإن كان من أهل النار عمل الشر لا محالة، والدعوة إلى الجنة وعمل الخير؛ لأن عمل الخير يعين منزله في الجنة، وأن عمل الشر يعين منزله في النار لا محالة كما قال تعالى: **﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾** [سورة البقرة: آية ١٤٨].

ومن هنا يتقلب في عالم الملكوت (عالم الغيب) حتى يظهر قوس الإيجاد في عالم الملك والشهادة وهو قوس قصير ^(٤) مقارنة بدائرة الإيجاد فيبينها القرآن الكريم قائلاً: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ثُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّى وَمِنْكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْأَعْمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾** [سورة الحج: آية ٥] ، و«بموته وفنائه ثم هلاكه» ^(٥) ينتهي قوس الملك (عالم الشهادة) الظاهر للناس وتبدأ بعدها النفختان ، والنشر والحشر ، والحساب وكل يومئذ يرجع إلى مرتبته التي اختارها لنفسه، ويعتمد كل ذلك على فرصة كدحه في قوس الملك. وفي تلك الفترة يرسم لنفسه معراج الصعود إلى مرتبته.

لم يتركه سبحانه وتعالى هائماً على وجهه مختاراً لا يدري ما يفعل، بل هداه، وأرشده،

(١) سورة الأعراف: آية ١٧٢ .
(٢) الدر المنثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت، ج ٣، ص ٦٠٣.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج ٨، ص ٣٢٨.

(٤) قوس الملك يقصر ويتسع حسب الإنسان وارتباطه بالمولى عز وجل ويخبرنا القرآن الكريم أن الملكوت قد كشف لنبي الله إبراهيم فاتسع عنده قوس الملك أكبر فقال سبحانه: **﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾** [سورة الأنعام: آية ٧٥]، ويتسع أكبر فتفتح دائرة الإيجاد بأقصى انفراجها للرسول الأكرم ص، قال تعالى: **﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾** [سورة النجم: آية ١١]، والروايات متظافرة في قصة ليلة معراج النبي ﷺ .

(٥) يراجع بحثنا: الصورة القرآنية لانهايار الموجودات، الدكتور أحمد الصفار، المصباح، مجلة علمية فصلية محكمة، العتبة الحسينية المقدسة، العدد ٣٨، السنة العاشرة، صيف ٢٠١٩، ص ١٥ .

وفطره على صفاته سبحانه وتعالى كاملاً متكاملًا: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه: آية ٥٠]، ((والظاهر أنَّ المراد هداية كل شيء إلى مطلوبه؛ ومطلوبه هو الغاية التي يرتبط بها وجوده وينتهي إليها، والمطلوب هو مطلوبه من جهة خلقه الذي أعطيه، ومعنى هدايته له إليها تسييره نحوها. كل ذلك بمناسبة البعض للبعض .))^(١)، فكان من فيض الله عليه -وهي اختيارية له سبحانه وليست قهرية أو انتزاعية- أنَّه كان صبغة الله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [سورة البقرة: آية ١٣٨] فكانت هي فطرة الله تعالى وقيل: ((تطهير الله))^(٢)، و((هي صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق))^(٣)، وفطرة الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ﴾ [سورة الروم: آية ٣٠]، وأنَّه سبحانه وتعالى ((فطرهم على التوحيد عند الميثاق على معرفته أنَّه ربهم قال لولا ذلك لم يعلموا من ربهم ولا من رازقهم))^(٤)، فهداه. ((فيؤول المعنى إلى إلقائه الرابطة بين كل شيء بما جهَّز به في وجوده من القوى والآلات، وبين آثاره التي تنتهي به إلى غاية وجوده؛ فالجنين من الإنسان مثلاً وهو نطفة مصورة بصورته مجهز في نفسه بقوى، وأعضاء تناسب من الأفعال، والآثار ما ينتهي به إلى الإنسان الكامل في نفسه، وبدنه . فقد أعطيت النطفة الإنسانية بما لها من الاستعداد خلقها الذي يخصها، وهو الوجود الخاص بالإنسان ثم هُديت، وسُيِّرت بما جهَّز به من القوى، والأعضاء نحو مطلوبها، وهو غاية الوجود الإنساني والكمال الأخير الذي يختص به هذا النوع))^(٥). وجنبه المستقبحات العقلية وفعل المستحسنات العقلية، وقال الصادق عليه السلام: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [سورة التوبة: آية ١١٥]، قال: ((حتَّى يعرفهم ما يُرضيه وما يُسخطه))^(٦). يعني أنَّ المراد بإلهام التقوى بيان ما يجب فعله، والإتيان به، وإلهام

(١) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج ١٤، ص ١٦٦.

(٢) التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي، احياء التراث العربي، بيروت، ج ١، ص ٤٨٥.

(٣) عن الصادق عليه السلام: التفسير الصافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، مؤسسة الهادي، قم، ١٤١٦هـ، ج ١، ص ١٩٣.

(٤) عن الباقر عليه السلام: بحار الأنوار، العلامة المجلسي (ت ١١١١هـ)، ١٩٨٣، ج ٦٤، ص ٤٤.

(٥) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج ١٤، ص ١٦٧.

(٦) الأصول من الكافي، ثقة الاسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٨ / ٣٢٩هـ)، الطبعة الثالثة ١٣٨٨، دار الكتب الإسلامية مرتضى آخوندي، طهران،

الفجور بيان ما يجب الكف عنه وتركه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرَ وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان: آية ٣]. ((إن السبيل المهدي إليه سبيل اختياري وإن الشكر، والكفر اللذين يترتبان على الهداية المذكورة واقعان في مستقر الاختيار للإنسان أن يتلبس بأيها شاء من غير إكراه وإجبار))^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [سورة الحجرات: آية ٧] أنظر للفظي (حَبَّبَ) وليس ود و(كَرَّهَ) وليس بغض، أو غيرهما من الألفاظ^(٢)، فهما جزءان من بنائه الروحي والنفسي والفكري.

فلا بد في تحصيلهم المعرفة من بيانه تعالى لهم إيّاها. أي على الله أن يبين لكل أحد، ((ولا ريب في أن العقول والأفهام تختلف في معرفة ما بين، فبعضها لها قوة على فهم الجميع، وبعضها على البعض. لأنه مع عدم خلق أداة تحصل بها المعرفة من دون بيان وعدم البيان، لو كلف بالمعرفة لزم تكليف ما لا يطاق))^(٣) قال تعالى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: آية ٢٨٦]، فأرسل الله اليهم من يعلمهم ويهديهم، ويريهم الطريق لينهضوا بأنفسهم مجدين ليعملوا ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: آية ١٥١]، فيكونون أمة قد أودع الرسول في قلوبهم علم الكتاب والحكمة، ومزكين بتزكيته، والتزكية هنا التطهير من قذارات القلوب، وتخليصها للعبودية. ولا سبيل لارتباط الأعمال البدنية بالأموال الغيبية، والاخلاق النفسية إلا بطريق الوحي.

وتبدأ رحلة الإنسان نحو مسير الصعود^(٤) إلى الله تعالى للوصول إلى المرتبة التي أقرها

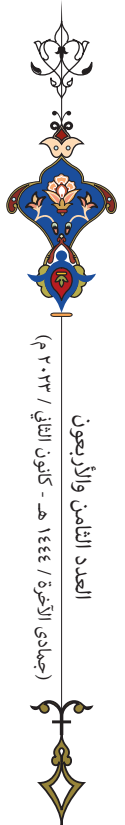
ج ١، ص ١٦٣.

(١) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج ٢٠، ص ١٢٢.

(٢) لأن الحب والكره هما في الوجدان وفي الفطرة وأما إذا نزلا على أرض الواقع فالحب العملي هو الود والكره العملي هو البغض والشئان والحق وغيرها. كما أن العدل في الوجدان فالقسط هو التطبيق العملي للعدل راجع بحثنا: اللفظ القرآني بين القوة والفعل، الدكتور أحمد الصفار، مجلة صدى القرآن، العتبة الحسينية، العدد ١٤، السنة الرابعة، ٢٠١٩، ص ١٠٣-١٦٥.

(٣) الدر المنظوم من كلام المعصوم، علي بن محمد بن الحسن بن زين الدين العاملي، المعروف بالشيخ علي الكبير، (ت ١١٠٣هـ)، ج ١، ص ٦٦٧.

(٤) قوس النزول: العوالم الروحانية والجسمانية، وينال في قوس الصعود: الحس والتعقل والإشراق



الإنسان بالميثاق و﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: آية ٢٩] ((فإن الله سبحانه إذ بدأ خلقهم قضى فيهم أن يتفرقوا فريقين فريقاً يهديهم وفريقاً يضلّون عن الطريق وسيعودون إليه كما بدأهم فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة بتولي الشياطين؛ فأقسطوا وأخلصوا حتى يكونوا من المهتدين بهداية الله لا الضالين بولاية الشياطين))^(١).

المشروع الإلهي

لا بد أن نتوقف قليلاً عند هذه النقطة لنحدد هذا المشروع الذي يكتنف الغيب ، والتسديد والعالمية ، والإخلاص والإيمان والصدق الفعلي والنفسي، ولعلنا نتلمس المشروع الإلهي في الآية الشريفة : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [سورة المائدة: آية ٥٦] ، فمن يتولى القيام بطاعة الله ورسوله ﷺ ونصرة المؤمنين، ومن يكون ولياً لله ورسوله والمؤمنين: بنصرة دين الله والاخلاص له. وهذه الآية مطابقة تماماً للآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [سورة المائدة: آية ٥٥]، وأنها تفيد وجوب طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة الذين آمنوا، الذين حددهم الحديث الشريف لاستكمال المشروع وديمومته ما دام القرآن قائماً بين الناس: ((وَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ مَا إِنْ مَسَّكُم بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي: أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ، كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعَتَرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُقُونِي فِيهِمَا))^(٢)، فلا بد من التمسك القوي والولاء الصادق لمن أُمِرَت بالتمسك به والاخلاص له ؛ لأنّ كمال المشروع الإلهي الذي بإمكان البشرية الاستفادة منه وجني ثماره، والتنعم بمكنون أسرارهِ متقوم على هذه الولاية والطاعة والاتباع، وهذا ما يجعل القائمون على هذا المشروع يعيشون حالة الصفاء والخلوص والاطمئنان الروحي والنفسي .

ومن بين عناصر هذا المشروع: وضوح الهدف والغاية، ووضوح المبدأ والمنتهى،

والكشف والشهود.

(١) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج ٨، ص ٧٦

(٢) الوصية: بحث في تحقيق ألفاظ حديث الثقلين، بدر الدين بن الطيّب كسوبة، النجف، ج ١،

ووضوح المنهج القويم والطريق المستقيم، ووضوح موازين الصحة والخطأ، أو الصواب والخطأ أو الحق والباطل، ووضوح المرجعية في الفكر والعقيدة والعمل والسير والسلوك والأخلاق، ووضوح المثل الأعلى الذي يريد صاحب المشروع أن يقتدي به، ووضوح المشروع من حيث سعة دائرته التي تقبل الآراء المختلفة والمتباينة والمتناقضة والمتباينة، ووضوح التقويم الذاتي والجماعي والرقابة الذاتية والإحسانية التي إن لم تر الله في مشروعه فالله يراك.

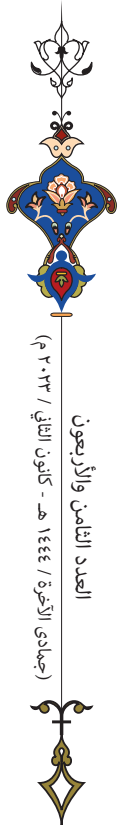
البداية والغاية

البداية والغاية محددتان بالآية الشريفة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [سورة القرة: آية ١٥٦]، (فإنية) العبد ستكون لله ومنها إليه راجع. وبين ال(إنا) والرجوع هناك حركة دائبة دائمة متصلة يمثلها حرف الجر (إلى) الذي يرسم الحركة الانتقالية من الأرض حيث الملك إلى عالم الغيب، (عالم الملكوت) حيث المراتب التي رتب الله الناس عليها حسب أعمالهم في دار الدنيا.

وهنا مكنن الحديث: فكيف يكون المنطلق بالرجوع إلى غايته؟ وكيف ستكون هذه (الإنا) في الآية ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ لتعود به ال(إلى) إلى نهايته الغائية^(١) وهو الله ليوصله سبحانه وتعالى إلى مصيره المطلوب من جنة أو جهنم قد بناها هذا الإنسان بيديه في حياته الدنيا، وكل ذلك موكل بيده سبحانه وتعالى، وهي يقينا من شأنه تعالى ولا يشاركه فيه أحد: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة القصص: آية ٥٦].؟

لقد رسم الله سبحانه وتعالى للإنسان مسارا إن أراد أن ينتقل تلك الانتقالة فإنه سيستكمل فيها صعوده الصحيح إلى مصيره المحتوم تجسيدا للآية السابقة المحددة للمنطلق

(١) تشتمل (إلى) على عدة معانٍ، وأهمها الآتي: انتهاء الغاية المكانية، ومثاله قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [سورة الإسراء: آية ١]، وانتهاء الغاية الزمانية، مثل قوله تعالى: ﴿أَتَمُواْ نَصِيَابَكُمْ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [سورة البقرة: آية ١٨٧]، والمعية: كقوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: آية ٥٢]، والتبيين: كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السَّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [سورة يوسف: آية ٣٣]. وإلى من الحروف الجارة وتدلل إذن على انتهاء الغاية زمانا أو مكانا، ظاهرا أو معنى، موضوعا أو حكما.



والغاية: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [سورة القرة: آية ١٥٦]، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [سورة الانشقاق: آية ٦]، (أيها الانسان) وهي (الإنّا) في آية الرجوع، حيث إنّك في أمرك هذا بشدة ومشقة إلى أن تلقى جزاء عملك من ربك، فأنت لا تخلو في الدنيا من مشقة، فلا تعمل لها، واعمل لغيرها فيما تصير به إلى الراحة من الكدح^(١). لقد اجتمعت كل أفعال الحركة في اللغة في فعل كدح فهو: السعي والإرادة، والإدراك والكّد، والجهد والسعي وهو حضور الوجدان، والبذل، والعطاء، وغيرها.

والانسان على هذا الحال ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ لما له تفخيم لشأن الأمر الذي يلقي من جهته، فجعل لذلك لقاء جزائه، لقاءه؛ وهذا من المعاني العجيبة والحكمة البالغة والهاء في ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ يحتمل أمرين: ((أن تكون كناية عن الله، وتقديره فملاقي ربك أي تلاقي جزاء ربك، ويحتمل أن تكون كناية عن الكدح، وتقديره فملاقي كدحك الذي هو عملك))^(٢). فكن كادحا باستمرار طوال حياتك لا تقتر وتمن، وتذبل وتخبو.

كما أنّ في الكدح تكمن عناصر البناء وإن شأها ضعف، وفتور، وتغافل، وهنّات، وهفوات لكن لا يجب أن يتحول هذا الكدح من الدنيا الى الدنيا، وعندئذ سيتغير مسار الحركة الانتقالية وغايتها الأخرى.

فالكادحون هنا على صنفين من الناس:

الصنف الأول:

هو من كانت ال(إنّا) فيه حيث تجد صاحبه إلهي بمشروعه، وغاياته، وأهدافه، فتكون (الإنية) فيه قوية، صلبة، متينة، صارمة، شديدة، وصلدة، فهذا يحیی ﴿يُحْيِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [سورة مريم: آية ١٢]، كيف له أن ينفذ مشروعه باندفاع وثقة عالية بالنفس إن لم يكن يمثل هو المشروع الإلهي ومنقادا بكله له، وهذا ابراهيم عليه السلام وقف أمام جموع الناس المستهزئين والханقين ومن الجلاوزة المتملقين للطاغوت؛ ليقف بكل جرأة وشجاعة

(١) الكدح: هو جهد في تعب مع استمرار. والكّد: فيه شدّة. والكده: فيه تأثير. وبينها اشتقاق اكبر. يقال: كدحه: إذا جعله متعلّقاً لجهدّه وأتعب فيه، ولازم هذا المعنى هو التأثير فيه. وكدح اليه: إذا اجتهد وأتعب نفسه في طريق الوصول اليه، فهو كادح، راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفى، ج ١٠، ص ٢٩.

(٢) التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي، احياء التراث العربي، بيروت، ج ١٠، ص ٣٠٩.



رادّا كيدهم الى نحورهم محاججا إياهم لينفذ مشروعه الإلهي قائلا وبكل شجاعة ومتحديا مشروعهم الباطل: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: آية ٦٣]، وموسى عليه السلام كيف وقف أمام أعتى طاغوت؛ وقف بصدر مفتوح ورأس مرفوع وصوت عال: ﴿يَفْرَعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٠٤]، وهذا نبينا عليه الصلاة والسلام كيف جسّد تلك القوة في ال(إنّا)، وهو الذائب بالمشروع الإلهي: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [سورة المائدة: آية ٦٧]. وأنتقل بقوة وعزيمة لأداء مشروعه الإلهي. وهذا علي عليه السلام مثل تلك (الإنية) بمشروعه بإرادة صلبه فاستفرغ كل تلك القوى الشعورية والإدراكية، والجسمانية والإيمانية بتنفيذ تلك الضربة الحاسمة^(١) على رأس الشرك لينهض بالمشروع الرباني، فما كان تنفيذه عليه السلام تلك الضربة لقوة عضلاته، وإن كانت كذلك، ولكن كان لقوة العزيمة وقوة الإيمان، فعمرو بن عبد ودّ العامري كان كذلك قويا وشجاعا وفارسا، ولا يقل قوة جسمانية، وهو المحارب المعروف، لكن رسول الله ﷺ لخص لنا تلك المبارزة بقوله: ((برز الإيمان كله إلى الشرك كله))^(٢). فإنيّة علي عليه السلام ليس كإنيّة عمر بن عبد ودّ.

فالكدح الى الغاية إذن؛ ليس من أدواته المادة فحسب؛ بل هو حمل المشروع، والعمل لأجل تنفيذه بكل إرادة. فالكدح يستبطن الوعي، والبصيرة، والتنفيذ، والإصرار على ديمومة المشروع، واستمراره. فهذه أمّ وهب زوجة لعبد الله بن عمير الكلبي تُحدث ابنها وهي تمسح على رأس زوجها المقتول بأرض الطف، وهي المفجوعة بزوجها، ولكنها المدركة لبرنامجهما فتقول: ((فداك أبي وأمي قاتل دون الطيّبين ذرية محمد ﷺ))^(٣)، فالجانب المادي وحده لا يعني شيئا بمسألة العروج نحو الكمال. سنتحدث عن هذا الجانب في الصنف الثاني.

إلاّ أنّه قد يلزم هذا المعراج نحو التكمال نقاط ضعف، وهي ليست من قبل التهاون والتراخي، بل قد تكون عوارض طبيعية تبطّئ من سرعة الحركة الانتقالية نحو التكمال؛

- (١) قال رسول الله ﷺ: «لضربة عليّ يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»، راجع: الفصول المهمة في معرفة الأئمة، علي بن محمد بن أحمد المالكي المكي، دار الحديث، ١٣٧٩، ج ١، ص ٣٢٩.
- (٢) علي امام البررة، ابو القاسم الموسوي الخوئي، دار الهدى، ج ٢، ص ١٦.
- (٣) بلاغ عاشوراء، جواد محمدي، ج ١، ص ٢٤٠.

ولا أقول تدعو الى التسافل لا أبدا ؛ ولكن أقول أن هذه الهنّات تكون حافزا، ومنطلقا لصاحب المشروع الإلهي وأن تكون منطلقا آخر لاستكمال مشروعه. تماما كالذي يتعرض الى غرق في نهر؛ فإنّه يتباطأ بحركته ليهوى الى قعر النهر ليلقى مصيره المحتوم، ولكن يبقى مشروعه وهدفه الأساسيين حاضرين في وجدانه وهو النجاة مما هو فيه، فحالما تمس قدمه قعر النهر، وهو في تلك الحال في أوهن حالات ضعفه، إلا ويستفيد من تلك الركلة في الاندفاع للارتقاء وليس للاستسلام، ألا ترى معي نبي الله أيوب كيف فعل به مرضه وهو عارض طبيعي ، إلا أنّه لم يؤخره عن مشروعه الإلهي، وهو في أوهن حال، وما أصابه من سوء الحال في بدنه وأهله قال راجيا ربه: ﴿إِنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانِ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [سورة ص: آية ٤١]، فلم ينس المشروع، والهدف، وإن قيّدت حركته فالتجأ الى غايته الى ربه لينهض مستكملا كدحه، وجاء الرد سريعا: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [سورة ص: آية ٤٢]، فوجده الله تعالى رجّاعا إليه ومنقطعاً اليه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: آية ٤٤].

وهذا يونس بن متى عليه السلام كان في لحظات العسرة، والظلمات تحجبه عن كل شيء لعارض أعاقه عن كدحه فلم ييأس، ولم يهن، وكان يعيش المشروع الإلهي بكل كيانه، ووجدانه أندفع من نقطة الضعف تلك ليقول بأعلى صوته، ويزفرها كلمة يضح بها لما يحمل من عنفوان الكدح نحو الرقي: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: آية ٨٧].

الصف الثاني :

هذا الصف الذي يتخيل أنّ (الإنّيّة) في الآية ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ في كدحه كلها متمثلة في ذاته المادية والجسمانية ، وجبروته وطغيانه ، أو لعلمه ومعرفته ظنا منه أنّه سيتقل من حال الى حال وهو غافل أنّه ينتقل من سعادة الى شقاء، ويتسافل بعدما كان ذو سجية نقية، وفطرة سليمة فيتناقل الى الأرض مرة بعد مرة ويردى هاويا الى الحضيض زعما منه أنّه يعلو ويكبر فتتفخ شخصية . ومراده ، ومبتغاه من وراء كل ذلك . ظانّا أنّه بوجوده قد ملء الكون، وبأنّه هو الأعلى وهو الأكبر وهو الأقدر. هذا فرعون وقف يوما مغرورا فنادى بين جيوشه والمستضعفين من شعبه متبخترا قائلا: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾



[سورة النازعات: آية ٢٤]، متصورا أنه بامتلاكه الأطيان ورقاب الناس يتحقق له الكمال^(١)، فمعاصره قارون لم يكن له سلطان وجيش، ولكنه جمع ثروة كانت تمول حكومة فرعون إلا أنه سرعان ما تساقط بغروره الى الأرض، ولم يستطع من النهوض بنفسه نحو التكامل. فكان كدحه معكوسا نحو الأرض وليس نحو السمو؛ ولذا فقد بغى كثيرا: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [سورة القصص: آية ٧٦]، فكانت انتقلاته هذه قد دفنته هو وعمله الى حيث كان يكذب: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [سورة القصص: آية ٨١].

هؤلاء المتساقطون، والمتثاقلون الى الأرض: ﴿أَنفَأَلْتُمِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [سورة التوبة: آية ٣٨] يظنون -بمقدار ما- خيرا بأنفسهم، ومادياتهم، ومعرفتهم على أنها هي الوسيلة للكمال لكنهم مخطئون، فالمادة وما يعولون عليه من أمور أخرى لا تعني كثيرا نحو العروج الى الكمال، فالسامري انحرف كدحه ليكون سلبيا. كان رجلا أنانيا منحرفا وذكيا في الوقت نفسه، حيث استطاع أن يستغل نقاط ضعف بني إسرائيل وأن يوجد وبجرأة ومهارة خاصتين. تلك الفتنة العظيمة التي سببت ميل الأغلبية الساحقة إلى عبادة الأصنام. مثل هذه النماذج وغيره كثير مهما بلغت قوتهم تلك، فمادة الكون أقوى منهم بالمفهوم المادي. فيحسبون أن بركلة أرجلهم سيخرقون الأرض وبكبريائهم سيطلون شواهد الجبال فمهلا مهلا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [سورة الإسراء: آية ٣٧].

وهنا يبرز السؤال التالي: لماذا ينحرف كثير من المؤمنين بعد إيمانهم؟ أمثال بلعم بن باعوراء^(٢)، والسامري والزبير ابن العوام؟! للإجابة عليه يمكن تلخيص ذلك للأمر التالي:

(١) ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الزخرف: آية ٥١]

(٢) كان رجلا على دين موسى ﷺ، وكان في المدينة التي قصدها موسى، وكانوا كفارا. وأنه أعطي بلعم ابن باعوراء الاسم الأعظم، وكان يدعو به فيستجيب له فمال إلى فرعون فلما مر فرعون في طلب موسى وأصحابه قال فرعون لبلعم: ادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا. فانحرف الرجل. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٧٦]

أولاً: تلاحق الفتن والابتلاءات مع عدم التحصين الكافي أمامه ما يؤديان للانحراف في مسيرة البشر وقد ينهار أمام بعضها. ومن هذه الفتن، فتنة حب الرئاسة. ثانياً: المبالغة بحسن الظن بالنفس غالباً ما تسبب الانحراف. ثالثاً: طول الأمل، والحرص على الدنيا من الأسباب الرئيسية للانحراف. لنرى الآن كيف تصرف الصنفان: الكادحين بالإيجاب والكادحين بالسلب. ولنأخذ مثالان هنا.

المثال الأول:

لما خرج قارون متبختراً بزينته، وعرشه، وجواريه، وخدمه، وحشمه فتطلع لهذا المشهد صنفان من الناس،

الصنف الأول: منهم ومن هم على شاكلته تمنوا أن ينالوا مثل مما هو عليه. فما كان عندهم وضوح فيما هو هدفهم من الحياة، وما المطلوب من السعي فيها، وما يريدون لغايتهم الأخروية فجعلوا الحياة الدنيا الغاية المطلوبة في مساعيهم ليس لهم وراءها غاية. فهم على جهل من الآخرة وما أعد الله لعباده فيها من الثواب: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّتْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [سورة القصص: آية ٧٩].

والصنف الثاني: من هؤلاء ممن آمنوا بأن هدفهم وغايتهم هي رجاء بلوغ مرتبتهم التي يسعون للحصول عليها، هم المؤمنون وأهل العلم بالله، ومرادهم أن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً مما أُوتِيَ قارون: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [سورة القصص: آية ٨٠]

المثال الثاني:

إنَّ ما جرى من طالوت في اختبار الذين خرجوا معه للجهاد، فقد انقسموا باختبار اغتراف الغرفة من الماء ثلاثة مجاميع، وكان قد سبقهم جزء رابع ممن فشلوا من الحقوق به ابتداء لركونهم الى الأرض، واهتمامهم بحياتهم الدنيوية. تمثل الابتلاء بأن صادف الجيش الخارج للجهاد في سبيل الله بعد قطعهم صحراء جافة،

وتعرضهم للعطش الشديد أن رأوا نهرا يجري فيه ماء صاف عذب وبارد، فأمرهم طالوت ألا يشربوا منه إن كانوا عازمين على السعي معه: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ [سورة البقرة: آية ٢٤٩]، وهؤلاء لم يتمثل عندهم مطلوب الكدح، وغاياته ففشلوا، وتراجعوا فشرَبوا من الماء. وما كانت عندهم بصيرة واضحة لمطلوب كدحهم في الدنيا، وما عندهم همة للعمل له. والمجموعتان الأخريان، مع أنهما نجحتا بعدم شرب الماء، ولكن أصبح الابتلاء الثاني باغتراف غرفة واحدة فقط: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٤٩]، وهنا تتضح تماما أن من يحمل المشروع الإلهي عليه أن يكون دوره تماما كطالوت القائد الإلهي وليس يتبعه لأسقاط الواجب أو لنيل الثواب والجزاء، ومن هو لم يصل لهذه المرحلة بعد لضعف بصيرته ولقلة معرفته يكون بعيدا عن المشروع الرباني. فكانت المجموعة الإلهية وهي القليلة هي الحاملة للمشروع الإلهي العاملة له الكادحة بقوة لأجله. تمثلت وانصاعت وأطاعت ولم تطعم الماء ولم تذقه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، وهؤلاء حملة المشروع الإلهي عند مجابهة العدو وقفوا أشداء أقوياء ذوو عزيمة وبأس شديد صدورهم مشحونة بالإيمان رجاء بلوغ الغاية، والمنى بتحقيق الهدف: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٤٩]، وأما الذين كانوا ضعفاء البصيرة ولم يحملوا المشروع الإلهي عن جدارة، والذين قد اغترفوا غرفة من الماء بيدهم هذه المجموعة الخائفة المترددة، وإن نجحوا بالابتلاء الأول لكنهم فشلوا بالابتلاء الثاني إذ أنهم لم يحملوا المشروع الإلهي عقيدة وإيمانا وعملا، ولم يسعوا جادين بالكدح للارتقاء، والسمو نحو الكمال كما هي المجموعة القليلة. هؤلاء كان موقفهم ينسجم تماما مع سعيهم المتواني والضعيف، ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٤٩]، فكانوا ظانين بلقاء الله تعالى.

وقد فعل الحسين عليه السلام كما فعل طالوت استجابة للأمر الإلهي في أن يختبر رفقائه الذين خرجوا معه من مكة متوجهين الى العراق. وكانت على أقل تقدير اختبارين لهم جميعا ليفرز الرساليون عن غيرهم.



الفئة القليلة صاحبة المشروع الإلهي

لنعبّر بـ (الرساليين) عن هذه الفئة القليلة التي تحمل هم الرسالة، والنهوض بها عملاً وتوعية بين صفوف الجماهير. و ((الرسالي هو الانسان الذي تشغل حياته مساحة كبيرة أو صغيرة من حياة الآخرين، ولكن لا من منطلق ذاتي ونفعي، وإنما من منطلق غيري وتضحوي يجعل حياته مشاعاً، يعود بالنفع والخير على الآخرين، الذين لا يرجو منهم نفعاً، ولا جزاء ولا شكوراً. إنّ حياته ذات أبعاد، وأبعادها هي الآخرون. هذا الانسان، هو إنسان صاحب قضية، فحياته ذات بعد معنوي تشكله القضية، وحياته غنية بمقدار ما في قضيته من غنى، ونبيلة بمقدار ما في قضيته من صوابية وصدق، وهو قادر على أن يكون صالحاً بمقدار ما يكون منسجماً مع قضيته العادلة، ورسالي بمقدار ما يعطي من حياته لهذه القضية، وهو إنسان يمكن أن يكون شهيداً))^(١)، هم الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَهُ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

وتتميز شخصية الرساليين بالمزايا التالية:

- ١ - التفاني في حب الله ورسوله .
- ٢ - ثبات نفسه على طاعة رسول الله والقيادة الالهية .
- ٣ - الولاء الكامل .
- ٤ - الارادة الايمانية العالية .
- ٥ - يكون على درجة من الأيمان .
- ٦ - الجرأة والشجاعة .
- ٧ - الوعي والبصيرة .

(١) أنصار الحسين (ع) دراسة عن شهداء ثورة الحسين الرجال والدلالات محمد مهدي شمس الدين

الدار الإسلامية، ص ٧

(٢) سورة الحشر: آية ٩

٨ - يمتازون بمنزلة علمية جديرة بالاهتمام .

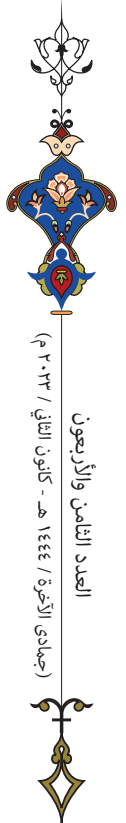
٩ - الذوبان في قضيتهم وهدفهم .

١٠ - القدوة والعبرة .

وخلاصة القول في هذا المجال : إنّ الناس قد انقسموا مع القادة والمصلحين إلى أتباع ونفور بالفكر ابتداء . ثم انقسم الأتباع على بعضهم كما رأينا إلى ثلاثة أصناف : وهم المصلحيون الذين يركضون وراء مصالحهم الدنيوية، والهامشيون الذين ينتظرون حصد النتائج وشغلوا أنفسهم بالتنظير دون العمل ، أمّا الرساليون فهم الفئة القليلة، وهم الفاعلون والعاملون الذين يحملون أرواحهم على أكفهم من أجل إتمام الرسالة بأكمل وجه.

إنّ السنن الإلهية في حتمية الأجل للأمم، وحتمية انتصار الحق وظهوره على الباطل، وقانون الاستبدال، وحتمية البلاء، والترابط، والملازمة بين العدل الاجتماعي، والرفاه الاقتصادي، والعاقبة للمتقين، والأرض يرثها الصالحون والمستضعفون، وقيام دولة الحق، والعدل هي سنن التاريخ وتعدّ الفكرة فتحاً مبيناً للعقل البشري في مستوى الوعي التاريخي يستطيع بها أن يحلّ كثيرا من العقد الفكرية، والآراء القلقة، ومنها الفكرة المهدوية أو حتمية انتهاء النظم الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وكل مناحي حياة المجتمع، والانسان الى نظم ربانية يسودها العدل، ويسوسها قائد الهي فيخضع الناس إلى هذه النظم اختياريا فيسود العالم الرفاه على كل الأوجه.

وكما أنّ للتاريخ بداية فله نهاية، وأنّ بداية التاريخ - كما تؤمن النظرية الإسلامية - تجسّدت في خلق آدم وحواء (عليهما السلام) كممثلين للجنس الإنساني، وهما محور الحركة التاريخية. أمّا الغاية والنهائية - كما تؤمن النظرية الإسلامية - فهي قيام مجتمع الصالحين الذي ينجح نجاحاً كاملاً في تحقيق العبودية الكاملة، وتجسيد القيم الإلهية الخالدة. وما بين البداية والنهائية فهناك مسار تاريخي طويل ومعاناة عميقة وكدح متصاعد: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [سورة الانشقاق: آية ٦] يبرز منه بعد غربة وتمحيص أناس تشرّبوا بالسنن الإلهية فهماً وعلماً، وعملوا بها لإنجاح المشروع الإلهي بتحقيق الغاية في تكوين المجتمع الصالح.



هؤلاء الرساليون الكادحون اتبعوا قادة ربانيين سبقوهم قد عملوا بالسنن الإلهية، فانقادوا لهم طواعية ومحبة، وأكملوا مشروعاتهم الإلهية، فزادهم صلابة وإصراراً على المضي في تحقيق الغاية العظمى. وتعدّ هذه الفترة وهي فترة الإعداد للقيام الأكبر (قيام دولة المهدي عليه السلام) من أخطر الفترات التاريخية وأهمها. وتعدّ حسب النظرية الإسلامية بناء نهاية التاريخ.

وهؤلاء المنتظرون العاملون الممهّدون لإقامة دولة الحق، والصابرون والمتجلّدون والمقتدون بالمهدي ﷺ وشركاؤه بالعمل والهدف من قبل قيامه ومعرفته فهم الأكرم على رسول الله ﷺ، وهم رفقاؤه. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((طُوبَى لِمَنْ أَدْرَكَ قَائِمَ أَهْلِ بَيْتِي وَهُوَ مُقْتَدٍ بِهِ قَبْلَ قِيَامِهِ، يَتَوَلَّى وَلِيَّهُ، وَيَتَبَرَّأُ مِنْ عَدُوِّهِ، وَيَتَوَلَّى الْأَئِمَّةَ الْهَادِيَةَ مِنْ قَبْلِهِ، أُولَئِكَ رُفَقَائِي وَذُو وَدِّي وَمَوَدَّتِي، وَأَكْرَمُ أُمَّتِي عَلَيَّ)) (١).

فهم المنتظرون العاملون الذين جعلوا قيام دولة المهدي ﷺ نصب أعينهم، وعملوا بيقين وثقة جاهدين في تحقيقها وآمنوا بسواد في بياض كما قال النبي ﷺ وسلم لِعَلِيٍّ (عليه السلام): ((يَا عَلِيُّ، وَاعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ يَقِينًا قَوْمٌ يَكُونُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لَمْ يَلْحَقُوا النَّبِيَّ وَحُجِبَ عَنْهُمْ الْحُجَّةُ، فَأَمَنُوا بِسَوَادٍ فِي بَيَاضٍ)) (٢)، وقيام دول العدل تكتمل حركة التاريخ وبانتهاؤها يكتمل قوس الملك بتحقيق الآية الشريفة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة القصص: آية ٨٨].

(١) بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الائمة الاطهار، العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ)،

ج ٥٢، ص ١٢٩

(٢) المصدر السابق، ج ٥٢، ص ١٢٥



المصادر و المراجع

١. الأصول من الكافي، ثقة الاسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٩ هـ)، ط ٣، ١٣٨٨، دار الكتب الإسلامية، مرتضى آخوندي، طهران.
٢. أنصار الحسين (عليه السلام) دراسة عن شهداء ثورة الحسين الرجال والدلالات محمد مهدي شمس الدين، الدار الإسلامية.
٣. بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الائمة الاطهار، العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ).
٤. بلاغ عاشوراء، جواد محدثي.
٥. التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي، احياء التراث العربي، بيروت.
٦. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، الشيخ حسن مصطفى.
٧. التعليقة على اختيار معرفة الرجال، محمد باقر الحسيني الاسترآبادي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٤٠٤ هـ.
٨. التفسير الصافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ)، مؤسسة الهادي، قم، ١٤١٦ هـ.
٩. الدر المنثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١ هـ)، دار الفكر، بيروت.
١٠. الدر المنظوم من كلام المعصوم، علي بن محمد بن الحسن بن زين الدين العاملي، المعروف بالشيخ علي الكبير، (ت ١١٠٣ هـ).
١١. شرح الأسماء الحسنى، حاج ملا هادي السبزواري (ت ١٢٨٩ هـ)، منشورات مكتبة بصيرتي، قم.

١٢. الصورة القرآنية لانهيار الموجودات، الدكتور أحمد الصفار، المصباح، مجلة علمية فصلية محكمة، العتبة الحسينية المقدسة، العدد ٣٨، السنة العاشرة، صيف ٢٠١٩، ص ١٥.

١٣. علي امام البررة، الإمام ابو القاسم الموسوي الخوئي، دار الهدى.

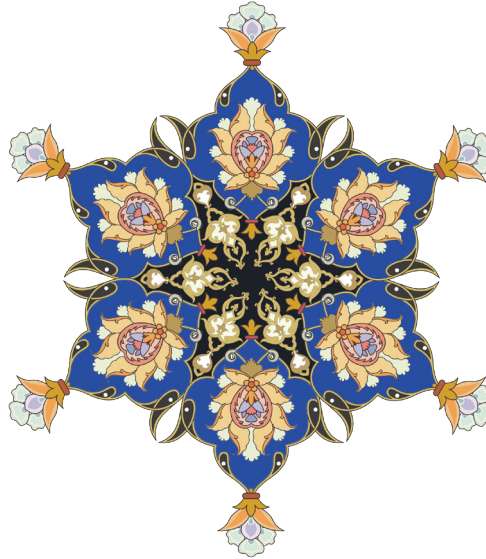
١٤. الفصول المهمة في معرفة الائمة، على بن محمد بن أحمد المالكي المكي، دار الحديث.

١٥. الفكر الخالد في بيان العقائد، جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.

١٦. اللفظ القرآني بين القوة والفعل، الدكتور أحمد الصفار، مجلة صدى القرآن، العتبة الحسينية، العدد ١٤، السنة الرابعة، ٢٠١٩، ص ١٠٣-١٦٥.

١٧. الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي.

١٨. الوصية: بحث في تحقيق ألفاظ حديث الثقلين، بدر الدين بن الطيّب كسوبة، النجف الأشرف.



حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ
أَنَّ أَبَا جَعْفَرٍ طَوَّعَ